الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2007/8/18م

التديُّن أو الالتزام بالدين لا يعني أن يكون الإنسان مكثرًا لعباداته ثم يكون الجانب المعاملاتيّ أو السلوكيّ العمليّ في حياته مظلمًا ومضطربًا ومشوشًا...

لا، فالله سبحانه وتعالى لم يرسل رسله من أجل أن يعلّموا الناس الصلاة والصيام وحسب، إنما كانت هذه العبادات وسيلةَ تطهير، أما المعاملة والسلوك الذي يسلكه الإنسان فهو أثر العبادة، وإذا انعدم ذلك الأثر الدالُّ على سببه يدل ذلك على أن السبب لا قيمة له أيضًا، لأنه فاقد لحقيقته.

ألم يقل ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]؟ فلم تكن الصلاة لمجرد تطهير قلب العبد وروحه، إنما أنتجت بعد ذلك معاملة واستقامة سلوكية.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25] .

فأثر الدين على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع إنما هو في المعاملات، فإذا كانت المعاملات مستقيمةً عادلةً ليس فيها غِشٌّ ولا خداع ولا ظلم... فإن ذلك يدل على وجود التديُّن.

وامتلاءُ المساجد في صلاة التراويح إذا لم يكن معه امتلاءٌ في الأسواق بالأمانة، وامتلاءٌ في المصانع بالإتقان، وامتلاءٌ في المجتمع بالصدق... لا يدل ذلك على ظاهرة التدين بمقدار ما يدل على عادات، والفارق بين العادات والعبادات أن العبادات تنتج المعاملات التي يكون فيها الإنسان مستقيمًا.

هذه حقيقةٌ ينبغي لكل من وصف نفسه بالالتزام أو التدين أن يزن نفسه عليها.

ومن هنا نقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(**لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ**) فلو صحّ إيمانه سيظهر أثر ذلك في معاملاته، فيحفظ الأمانة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58].

(**وَلا دِيْنَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ**) أي لمن لم يكن ملتزمًا بعهوده ومواثيقه، فالدين ما تنقاد به، وهو يسوقك إلى الصراط المستقيم، فإذا كان الإنسان يعاهد أو يكتب المواثيق أو يعِد... ولا يلتزم بشيء من هذا، فإن الدين لم ينتج عنده أيَّ أثر، لذلك قال: (**وَلا دِيْنَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ**).

ومن خلال هذه الحيثية استقرَأتُ ما ورد في كتاب الله تبارك وتعالى من الآيات التي تتحدث عن الظلم، فرأيت أنها تنقسم إلى نوعين رئيسين:

1- ظلم الإنسان لنفسه.

2- ظلم الإنسان الذي يتعدى إلى الناس.

ظُلم الإنسان لنفسه يكون حينما يخالف توجيه الله سبحانه وتعالى الذي وجّهه إليه في سلوكه الخاص الذي لا يتعدى إلى الآخرين، لكن حينما يتعدى ظلمه إلى الآخرين يكون شيء آخر، فلاحظت أن القرآن الكريم حينما يذكر ظلم الإنسان لنفسه يذكر معه مغفرةَ الله تبارك وتعالى وعفوَه.

الظالم لنفسه مرشَّحٌ لأن يكون مغفورًا له إن هو تاب وتوجَّه إلى الله تبارك وتعالى بالاستغفار، أما **الظالم لغيره** فالأمر مختلف تمامًا، إذ ينتظره العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

الذي يظلم نفسه يغفر الله تبارك وتعالى له إن هو استغفر وتاب، لكن **الذي يتعدى ظلمه إلى الآخرين** ينتظره عذابٌ في الدنيا وفي الآخرة.

وقد وصلتُ إلى هذه النتيجة وأنا أقرأ الآيات في كتاب الله تبارك وتعالى.

فمن الآيات التي تتحدث عن الذي يظلم نفسه ويستغفر، ويغفر الله تبارك وتعالى له، نقرأ:

- ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي فعلوا معصية، ووقعوا في المحظور في السلوك الخاصّ، ﴿ذَكَرُواْ اللّهَ﴾ تذكروا عظمة الله وكرمه ومنّته ورحمته... ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 133-135].

- واقرؤوا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ الظلم المتوجه إلى النفس في سلوكه الخاص، ﴿جَآؤُوكَ﴾ أي جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

- وأيضًا نذكر في نفس السياق قولَ ملكة سبأ التي أسلمت مع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: 44].

لكنَّ القرآن الكريم لم يذكر هذا النموذج - وهي ملكة كانت تملك الناس - إلا وذكر في سيرتها أنها كانت ملكةً عادلةً لا ظالمة، وأنها كانت تستند إلى مبدأ الشورى و لم تكن مستبدة، فقد قال القرآن الكريم وهو يصفها تتحدث مع شعبها:

﴿قَالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي في أمر الكتاب الذي توجه إليها من سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: 32] إنها تمتنع عن اتخاذ أيِّ قرار حتى يكون نابعًا عن الشورى، وبوجود الشورى ينتفي الظلم، ولا يمكن أبدًا أن يكون الإنسان ظالمًا للآخرين، لأنه لا ينطلق من الـــ "أنا"، فالـــ "أنا" هي التي تصدِّر الظلمَ للآخرين.

هي لم تعبد الله بل عبدَتِ الشمس، لكنها لم تظلم الآخرين، وحينما وصّف الله سبحانه سلوكها وصفه بأنه ظلم للنفس فقال: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقبِلها الله سبحانه، وجعلها مكرَّمة كريمة.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الآيات التي تتحدث عن غير الظلم للنفس، نقرأ:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10] فلم يرد في سياق الآية أيُّ معنًى من معاني العفو والمغفرة أبدًا، فحقُّ الله يسامحُ الله تبارك وتعالى فيه حين تستغفر، لكنْ حينما تعتدي على حقوق الآخرين، ما الذي يقوله الله تبارك وتعالى في قرآنه؟ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

- ونقرأ في نفس السياق مقارنةً عجيبةً جعل الله سبحانه وتعالى فيها الكفر مقارنًا للظلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً، إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 168-169] وما جاءت هذه المقارنة بين الكفر والظلم إلا ليدلَّك على منـــزلة الظلم.

- ونقرأ حديث القرآن عن عذاب الظالمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي غيرها، وما قال: ظلمت نفسها، وفرقٌ كبيرٌ بينهما، فهناك توجَّهَ ظلمُ الإنسان إلى نفسه في دائرته الخاصة، وهنا نفسٌ ظلمت غيرها، بوحشيتها، وبسَبُعيَّتها، وبنَهَمِها، وبجشعها...

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ﴾ هذه النفس التي كانت تظلم لِتجمعَ شيئًا من المال، وشيئًا من الجاه، وشيئًا من السلطان... لو عُرِضَ عليها يومَ القيامة ما في الأرض جميعًا، ﴿لاَفْتَدَتْ بِهِ﴾ أي لجعلت ذلك فداءً، ولتخلَّت عن كل أملاكها، وعن كلِّ ما كانت تحلم في الدنيا أن تمتلكه، لتتخلص من العذاب الشديد الذي ينتظرها في الآخرة، لكن ذلك لا يُغنيها عن العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ﴾ [يونس: 54]

– وفي القرآن أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾

في الآية السابقة قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ﴾، وهنا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي ضعف ما في الأرض، وكنت أتساءل: لماذا ضاعف القرآن العذاب هنا، وهناك جعل لهذه النفس الظالمة ما في الأرض وهي تريد أن تفتدي به؟ ما السرّ؟

حاولوا أن تفهموا تعبير القرآن.

هناك نفسٌ ظالمةٌ واحدةٌ لا يُعينها أحد، وهنا نجد الظلم الجماعيّ الذي يعين الظالمُ فيه الظالمَ، وكلُّ من أعان ظالمًا فهو ظالمٌ مثلُه، لذلك كان الأمر مضاعفًا، لأن الظلم الجماعي يكون حين يتضافر جَمْعٌ ليصدِّر ظلمًا، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47]

قال صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الصحيح: (اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي اجعلوا بينكم وبين الظلم مسافة ووقاية.

وقرَّر القرآن أن أهل الظلم لا ينتظرهم عذاب الآخرة فقط، إنما يتوجّه إليهم العذاب في الدنيا، فقد يكون العذاب المتوجّه إليهم في الدنيا:

- **إما بنازلةٍ كونية يُنــزلها الله تبارك وتعالى بهم.**
- **أو بأيدي أهل الإيمان.**

* **أما نموذج من وجّه الله تبارك وتعالى بسبب ظلمهم نازلةً كونية،** فيُعبِّر عنه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 59]

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ [الأعراف: 165]

وقولُه تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 45] فإزاحة الظالمين من الأرض بنازلة إنما هو نعمةٌ يُحمد الله تعالى عليها.

– وحذَّر حينما يسكت عن الظلم من يشهد الظلم، لأن العذاب حينما ينـــزل لا ينـــزل بالظالمين وحدهم ومعهم من يهزُّ رأسه ساكتًا ومُقرًّا، بل ينـــزل بالجميع، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: 25] إنه خرقٌ لسفينة المجتمع، وحينما تتضافر مجموعةٌ ظالمةٌ لتخرقَ سفينة المجتمع، ولا يأخذ المجتمع على يدها، فإن المجتمع كلَّه سيغرق ويهلك.

– وحذَّر (لا من مجرد السكوت) بل من ركون القلب أيضًا، فميلُ القلب بالمحبة للذين ظلموا إنما هو من أسباب العذاب، فكيف هو الأمر بعذاب من ظَلَم؟ إذا كان ميلُ القلب إلى من ظَلم سببًا للعذاب، فكيف بمن ظَلَم؟!

وقال الله تعالى في هذا: ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [هود: 113]

* **وأما نموذج إنـــزال العقوبة في الدنيا على يد أهل الإيمان بالظالمين**، فهو ما ورد في كتاب الله تبارك وتعالى على لسان المَلِك المؤمن الصالح ذي القرنين:

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ وتعذيبُ من يظلم الناسَ ليردَّه عن ظلمه هو عينُ العدالة،

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: 87] فيجتمع له العذابان.

قال صلى الله عليه وسلم:

– **(مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا)** أي رزقه وطعامُه حلال.

– **(وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ)** أي كان عملُه مُهتديًا بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– **(وَأَمِنَ النَّاسُ بَوَائِقَهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ)**، قال: **(وَأَمِنَ النَّاسُ)**، وما قال: وأَمِنَ المسلمون، وما قال: وأَمِنَ المؤمنون، والبوائق: جمع بائقة، والبائقة: كلُّ أمر شديد مزعج.

فإذا صدر منك إزعاجٌ يؤلم الناس، وكنتَ سببَ إزعاجٍ وشدَّةٍ للناس، خرجْتَ عن الأسباب التي تسوقك إلى الجنة.

إنها شروطٌ ثلاثة على الإنسان أن يحققها.

اكتبْ هذا واجعلْه دستورك في الحياة: (مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا، وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَوَائِقَهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ)/ رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وأختم بحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم المُتفق عليه، الذي رواه البخاري ومسلم: قال صلى الله عليه وسلم: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن) يحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثًا، قيل: من يا رسول الله؟ من هذا الذي تحلف ثلاث مرات أنه بعيدٌ عن الإيمان؟ قال: (الذي لا يأمن جارُه بوائقَه).

تُراك هل ستسعى لوزن نفسك، أهي ظالمة باللسان؟ هل يظلم لسانك أعراض الناس؟ هل تُوجِّهُ إلى الناس أوصافًا هم بريئون منها، وستكون ظالمًا لهم بلسانك، وتصبح نفسُك ظالمة؟

هل تظلم بمالك؟ هل تظلم بقوتك؟ هل تُعين ظالمًا؟ هل تتعاون مع ظالم؟ هل تركن بقلبك إلى ظالم؟...

اضبط لسانك، واضبط مالك، واضبط سلوكك...

ما بينك وبين الله تعالى فيه مسامحة، وما بينك وبين العباد من الظلم - حين تكون ظالمًا لهم - سيكون لك مُقيِّدًا وحابسًا في ظلمات جهنم.

(اتّقوا الظّلْمَ، فَإِنّ الظّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَة)

إنها وقفة مراجعة، علينا أن نراجع أنفسنا فيها، حتى لا نتوهَّم أن كثرةَ ذِكْرٍ نذكر الله فيه، أو كثرةَ صلاةٍ نصليها بين يديه، أو كثرة صيام... يمكن أن يبعدنا عن تلك الظلمات التي يسوق الظلم إليها.

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يُطيل السفر، أشعث أغبر، يرفع يديه بالدعاء، يقول: يا رب يا رب.. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام.. فأنّى يُستجاب له؟.

رُدَّنا اللهم إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.